مسألة

صِحّة إيمانِ المُقلّد

كتبه

عبداللطيف الراوي الحسيني

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

الراوي
للعلوم الشرعية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه، وبعد،

- فهنا مسألة، وهي: هل يَصحُّ إيمانُ المقلد؟

وهذه المسألة مما تنازع الناسُ فيها، والتحقيق في هذه المسألة: أن مسائلَ الدين تنقسم إلى: أصول وفروع.

فالفروع: هي المَسَائل الفقهية: وهذه يجوز التقليد فيها بالإجماع، خِلَافًا لبعض المعتزلة – كمعتزلة بغداد – الذين أوجبوا على جميع الناس البحثَ عن الأدلة التفصيلية لكلِّ مسألةٍ فرعيةٍ دَقَّت أو كَبُرَت، وأوجبوا عليهم استنباطَ الأحكام مِنَ الأدلة.

ولا شك أن هذا قول فاسد لا عبرةَ به.

إذن هذه المسائل الفروعية يَصِحُّ إيمان المقلد فيها بلا إشكال، فلا يُشترط في صحةِ إيمان المسلم العامي أن يَستدل أو يَستنبط حكمَ كلِّ مسألة فرعية، وإنما يَكفيه أن يعرِفَ حكمَ هذه المسائل ممن يثق به في دينه.

وأما المسائل الأصولية فتنقسم إلى قسمين :

القسم الأول: مسائلُ كليَّةٍ تتعلق بصحة الإيمان والتوحيد، وتشملُ الإيمانَ بأركان الإيمان الستة، وهي الإيمانُ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره.

وأعظمُ ذلك: معرفةُ الله والإيمانُ بوجوده وبربوبيته وصفاته وأنه هو المستحق للعبادة دونَ ما سواه، وأيضا معرفةُ الرسول وصحةُ رسالتِه وأركانِ الإيمان الستة .

والقسم الثاني: مسائلُ أصولية، لكنها دون القسم الأول، كبعضِ مسائل الإيمان ومخالفة المرجئة والخوارج وبعضِ دقائق مسائل القدر دون المسائل العظمى فيه.

واختلف الناس في صِحة إيمان المقلد في هذه المسائل الأصولية بقسميها:

❋ فقال قوم أنَّ التقليد في مسائل الأصول مُحرَّم، فيجب على كل مسلم أن يعتقد كلَّ مسألة من مسائل الأصول بدليلها، وعللوا ذلك بأن التقليدَ يفيدُ الظن، ومسائل الاصول لا يُقبَل فيها الظن، بل يَجبُ الاعتقادُ الجازمُ فيها، وعلى ذلك لا يَصحُّ إيمانُ المقلد في هذه المسائل الأصولية، وهذا هو قول كثير من الفرق الكلامية الجهمية كالمعتزلة والأشاعرة، واستدلوا أيضًا بحديث سؤال المَلَكَيْن في

القبر، وفيه أن الرجلَ يُسألُ عن ربه ودينه ونبيه فيقول: (**هاه، هاه، لا أدري**) [أخرجه أبو داود (٤٧٥٣)، والنسائي (٢٠٠١)، وابن ماجه (١٥٤٩)، وأحمد (١٨٥٥٧)].

ولكن يُجاب عَن هذا الاستدلال: أن هذا الرجلَ منافقٌ، فقال ما قال الناسُ مِن غير أن يجزم بهذا المعتقد، والمتقرر أن الأصول والعقائد يُشترط فيها الاعتقاد الجازم حتى تَصِحَّ، وإلا فهو منافقٌ كافرٌ باطنًا وإن أظهر الإسلام بلسانه وعمله.

والحقيقة أنَّ قولّ الجهمية من معتزلة وأشعرية بعدم صحة إيمان المقلد ناتج عن أصل لديهم، إلا وهو "**إن أول واجب على المُكَلَّف النَّظَر**"

وقد أخذوا هذا الأصل عن أسيادهم الفلاسفة وأقحموه في الدين.

فقالوا: "**إنَّ وجودَ اللهِ غيرُ مَعلومٍ بالاضطرار، إنما يُعلم بالنَّظَرِ والاستدلال**" ، فجحدوا بذلك الفطرةَ التي فَطَرَ اللهُ الناسَ عليها، فخالفوا المعقولَ والمَنقول والفِطرَة.

فقال الباقلاني الأشعري: " **أولُ مَا فَرَضَ اللهُ -عز وجل- على جميع العبادِ النَّظَرَ في آياته... لأنه سبحانه غيرُ مَعلُومٍ باضطرار**" اهـ. [الإنصاف (٣٣)].

وقال الجويني الأشعري: "**أولُ مَا يَجِبُ على العَاقِلِ البالِغِ باستكمال سِنِّ البلوغ أو الحلم شرعـاً: القصد إلى النظر الصحيح**" [الإرشاد (٢٥)].

وحَكَمُوا بالكفر والخلود في النار على مَن لَم يَعلم تُرَّهَاتِهِم الفلسفية ومَا يُسمُّونَها بالبديهيات العقلية، فقال الباجوري شارح "جوهرة توحيدهم" بعد أن ذَكَرَ ما يُسمونها بالمطالب السبعة التي يَتَوَصَّل بها العالِمُ إلى معرفةِ وجودِ الخالق: "**وهذه المطالب السبعة لا يعرفها إلا الراسخون في العلم. وقال السنوسي: وبها ينَجو المُكلَّفُ من أبواب جهنم السبعة**" [شرح جوهرة التوحيد (٤٢)].

فالراسخ في الضلال الفلسفي هو الناجي من النار عندهم، وأما سائر العوام من المسلمين فهم حَطَب جهنم هم فيها خالدون!

وهذا هو عين مذهب أسيادهم الجهمية المعتزلة، فقد قال القاضي عبدالجبار المُعتزلي: "**إن سَأَلَ سَائِلٌ فقال: ما أولُ مَا أوجَبَ اللهُ عليك؟ فقل: النظر المُؤَدِّي إلى معرفة الله تعالى؛ لأنه تعالى لا يُعرَف ضرورةً ولا بالمشاهدة، فيجب أن نعرفه بالتفكر والنظر**" [شرح الأصول الخمسة (٣٩)].

وقد صرَّح ابنُ حجر العسقلاني أن هذه المسألةَ عند الاشاعرة مِن أصولِ المُعتزلة، فقال: "**وقد نَقَلَ القدوة أبو محمد بن أي جَمْرَة عن أبي الوليد البَاجِي**

عن أبي جعفر السمناني – وهو من كبار الأشاعرة – أنه سمعه يقول: إن هذه المسألة من مسائل المُعتزلة بقيت في المذهب – يعني المذهب الأشعري – والله المستعان" [فتح الباري (١/ ٧٠)].

بل ذَهَبَ الأشعريةُ إلى أبعد من هذا الضلال، فقالوا: **"إنَّ أولَ واجبٍ على المُكلف الشك!!"** ، وقد قال به الجويني وِفَاقًا للمعتزلة، لذلك لمَّا تكلم ابنُ حجر العسقلاني عن الجويني في قوله: "ركِبتُ البحرَ الأعظم" قال: **"إن قوله: (ركبت البحر الأعظم) إشارة إلى هذا المذهب، أي مذهب الشك"** اهـ. [فتح الباري (١٣/ ٣٥٠)].

ومن الذين طَبَّقُوا وأعمَلُوا هذا الأصلَ حَرفِيًّا وعَمَليًّا: رأسُهُم الأول الجهم بن صفوان لَمَّا شَكَّ في ربِّه وتَرَكَ الصلاة أربعين يوما بعد مناظرته للملاحدة السُّمنية، كما ذكره عنه الإمامُ أحمد رحمه الله في [الرد على الزنادقة والجهمية].

وكذلك مِمَّن شَكَّ أبو حَامِد الغَزالي الذي بَقِيَ سنين في شَكِّهِ وتردده حتى اعتَنَقَ دينَ الصوفية.

ومِن ذلك ما حَصَلَ لإمامهم الفخر الرازي مِن شَكٍّ ورَيب.

* وأما أهل السنة فقالوا: بل يَجوز التقليدُ حتى في المسائلِ الأصوليةِ بقسميها، واستدلوا على ذلك بأن الرسولَ ﷺ والصحابةَ -رضي الله عنهم- كانوا يَقبلون إسلامَ الناسِ بشتى صفاتِهم وأحوالهم مِنْ متعلمٍ وأميٍّ، وحَضَري وأعرابي، ولم يكونوا يَذكرون لهم الأدلةَ التفصيليةَ لكل مسألة من مسائل العقيدة، وقد قال تعالى: {**فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ**} [النحل:٤٣]. وهذا أمْرٌ من الله -تعالى- بسؤال أهل العلم، ولم يَشترط في ذلك معرفةَ الدليل، بل الشرط هو عدمُ العلم فقط، وأيضا لم يُقيِّد السؤالَ في مسائلِ الفروع، بل يَشمل ذلك الفروعَ والأصولَ.

وعلى ذلك فإنه يَصِحُّ إيمانُ المُقلِّد في المسائل الأصول بإطلاق، لكن يُشترط أن يكون إيمانُهُ عَن جَزْمٍ ويَقِين. وهذا القولُ هو الصواب؛ لأنَّا لو اشترطنا النَّظَرَ والاستدلالَ لكلِّ مسألة عقدية لَمَا صَحَّ إيمانُ كثيرٍ من عوام المسلمين الموحدين الذي يَعبُدون الله وحده ولا يُشركون به شيئا ويُثبتون جَزْمًا صفاتِ الربِّ -جل وعلا- جملة، ويؤمنون جزمًا بأركان الإيمان الستة، ولا يعرفون مع ذلك كثيرًا من أدلة الكتاب والسنة.

قال شيخُ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "**النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لم يدْعُ أحدًا إلى النَّظَرِ ابتداءً، ولا إلى مجرَّدِ إثباتِ الصَّانِعِ، بل أوَّلُ ما دعاهم إليه**

الشَّهادتانِ، وبذلك أمرَ أصحابَه... وهذا ممَّا اتَّفق عليه أئمَّةُ الدِّينِ... والقرآنُ ليس فيه أنَّ النَّظَرَ أوَّلُ الواجباتِ، ولا فيه إيجابُ النَّظَرِ على أحدٍ، وإنَّما فيه الأمرُ بالنَّظَرِ لِمن لم يحصُلْ له الإيمانُ إلَّا به، وهذا أصحُّ الأقوالِ، فقولُ هؤلاء، كأبي المعالي وغيرِه: أوَّلُ ما يجِبُ على العاقِلِ البالِغِ القَصدُ إلى النَّظَرِ، هو في الأصلِ من كلامِ المُعتزِلةِ، ومخالِفٌ لما أجمعَ عليه أئمَّةُ الدِّينِ، ولِما تواتر عن سيِّدِ المرسَلينَ، وعُلِمَ بالاضطرارِ من دينِه" [درء تعارض العقل والنقل (٨/ ٦-١٠)].

وقد يُقَال أن التقليد في أصول الدين يكونُ بحسب حال الإنسان، فالناس تتفاوت مدارِكُهُم، فالذي يستطيع النظرَ في أدلة الكتاب والسنة وطَلَبَهَا فإنه يؤمَرُ بالإيمان الجازم بأصول الدين ويصح منه إيمانه، ثم يجبُ عليه طلبُ أدلةِ هذه المسائل مِن مَظَّانها.

وقد سُئِلَ العلامةُ صالحُ الفوزان في شرحه على فتح المجيد: ما الواجب على المقلد، هل يجب عليه ن ينظرَ في الأدلة كغيره؟ فأجاب حفظه الله: **"إذا كانَ عنده استعداد، وإدراك، فيجب عليه أن يَنظرَ في الأدلة"** اهـ.

فالشيخ -حفظه الله- حَصَرَ النَّظَرَ في الأدلة فيمن كان مُستعدًا وله إدراكٌ وعلمٌ في النصوص.

وسُئِل أيضا –حفظه الله– في شرحه على كتاب التوحيد: هل يَصِحُّ التقليد في باب العقائد؟ فأجاب: **"التقليد لا يجوز في العقائد، لازم تتعلم العقيدة، لازم تتعلمها، وتعرِف أدلتها، ما يكفي أنك تقتدي بالناس، إلا العامي إللي ما يستطيع أن يتعلم، يقتدي بالصالحين، يقتدي بالموحدين، ما هُو يقتدي بكل الناس، يقتدي بالموحدين، {وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي}، {أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ ۖ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ}"** اهـ.

وأمَّا أول واجب على المكلفين عند أهل السنة والتوحيد فهو البراءة من الشرك وأهله وإخلاص العبادة لله وحده كما قال الله تبارك وتعالى في أول أمر جاء في المصحف في سورة البقرة: **{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}** [البقرة:٢١].

فأول أمر للناس هو أن يعبدوا الله الذي خلقهم، وخالقهم معلوم عندهم بالفطرة، لم يحتاجوا إلى النظر في معرفته؛ فهو معلوم عندهم بالاضطرار بالفطرة والعقل، لا كما زعمت الجهمية من أشعري ومعتزلة.

ولما أرسل النبي ﷺ معاذًا إلى اليمن قال له: (**إِنَّكَ سَتَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ، فَإِذَا جِئْتَهُمْ، فَادْعُهُمْ إِلى أَنْ يَشْهَدُوا أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وأَنَّ مُحَمَّدًا رَسولُ اللهِ**) [أخرجه البخاري (١٤٩٦) واللفظ له، ومسلم (١٩)].

ولم يقل له: "أخبرهم أنه يجب عليكم أن تَشُكُّوا، ثم تَنظُروا في الأدلة العقلية التي توصلكم إلى وجود الله!

بل إنَّ كفار قريش كانوا يعرفون الربَّ جل وعلا، ويعلمون أنه هو الخالق والرازق والمدبر، ولم يخاصموا الرسول في هذه الحقيقة المُستقِّرة عندهم، فكانوا أعرَفَ بالله من الجهمية.

فقال تعالى: {**وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ**} [العنكبوت:٦١].

وقال سبحانه: {**وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ**} [الزخرف:٩].

وقال تعالى: {**قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ**} [يونس:٣١].

وكُلُّ رسول بُعِثَ إلى قومه بدأ دعوته بالأمر بعبادة الله وحدَه، ولم يقل لهم: "شُكُّوا في وجود الله، ثم انظروا في الأدلة العقلية لكي تصلوا إلى إثبات وجود الله!!"

فكلُّ رسول بُعث إلى قومه يقول لهم: {**يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ**}، وقال تعالى: {**وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ**} [هود: ٥٠]،

وقال تعالى: {**وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ**} [هود: ٦١]،

وقال تعالى: {**وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ**} [هود: ٨٤].

ونبيُنا محمدٌ ﷺ بدأ دعوتَه لقريشٍ بقوله: (**قولوا: لا إله إلا اللهُ تفلحوا**) [رواه احمد].

قال شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب رحمه الله: (**اعلم رحمك الله، أن أول ما فَرَضَ اللهُ على ابن آدم: الكفر بالطاغوت، والإيمانَ بالله؛ والدليل قوله تعالى: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ} [النحل:٣٦]. فأما صفةُ الكفرِ بالطاغوت: أن تعتقد بطلان عبادة غير الله، وتَتركُهَا، وتُبغِضَهَا، وتُكَفِّر أهلها، وتعاديهم، وأما معنى الإيمانِ بالله: أن تعتقدَ، أن الله هو الإِلَهُ المعبودُ وحده، دُونَ من سِواه، وتُخلصَ جميعَ أنواعِ العبادةِ كلِّها لله، وتَنفِيَهَا عن كلِّ معبودٍ**

سِواه، وتحبَ أهل الإخلاص، وتواليهم، وتُبغضَ أهل الشرك، وتعاديهم؛ وهذه: ملةُ إبراهيم التي سَفِهَ نفسَه من رَغِب عنها؛ وهذه: هي الأُسوة التي أخبر الله بها في قوله: {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللهِ وحده} [الممتحنة:٤]. إلى أن قال رحمه الله: واعلم: أن الإنسان ما يصير مؤمنًا بالله، إلا بالكفرِ بالطاغوت، والدليلُ قوله تعالى: {فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}[البقرة ٢٥٦]" اهـ. [مجموع مؤلفاته (١/ ٣٧٦)].

والحمد لله رب العالمين

كتبه/ **عبداللطيف الراوي الحسيني**

٢٧ رجب ١٤٤٥